مركز شؤون المرأة - غزة
Women's Affairs Center - Gaza

فقدت شمس زوجها شهيداً أمام عينيها، ثم اكتملت معاناتها بمأساة جديدة بعد بتر ساقيها ...

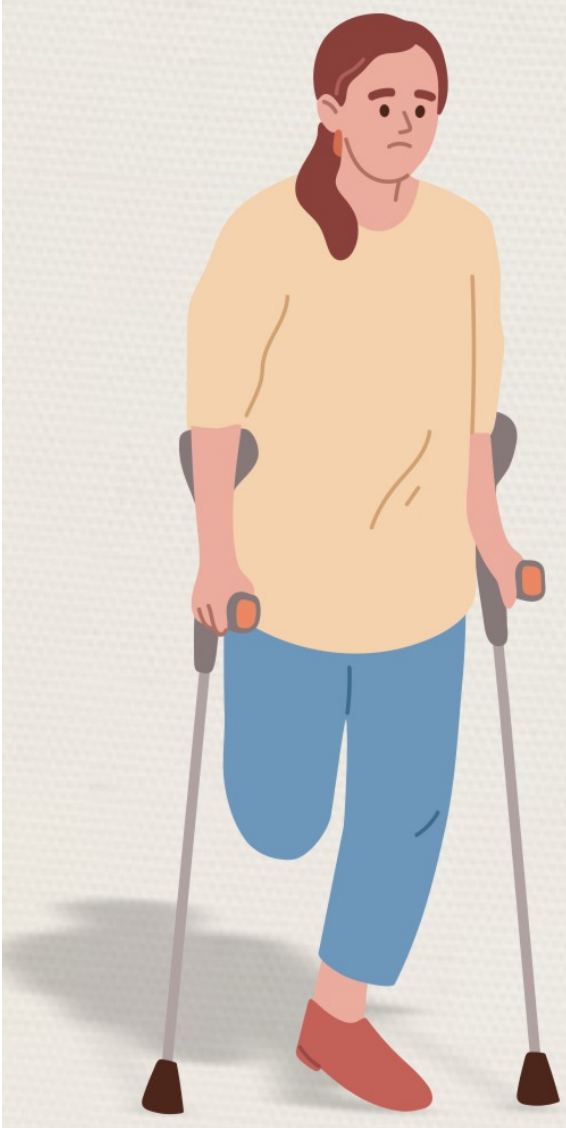

"أصعب أيام حياتي أعيشها وأنا في عمر الصبا. العمر الذي كان من المفترض أن أعيش فيه أجمل أيامه، قضيته في الفقد والمرض والعجز."

عائلة مفقودة وساق مبتورة

قست الحرب المدمرة على قطاع غزة على الشابة شمس (24 عاماً)، من سكان شارع النزاز في حي الشجاعية شرق غزة. فقدت شمس زوجها شهيداً أمام عينيها، ثم اكتملت معاناتها بمأساة جديدة بعد بتر ساقيها نتيجة إصابة مباشرة أواخر أغسطس 2024.

تزوجت شمس قبل عدة سنوات، ولديها طفل يُدعى محسن ويبلغ عامين ونصف. لم يكن يوم السابع من أكتوبر 2023 يوماً عادياً بالنسبة لها، إذ تلقت فيه نبأ استشهاد أخيها، تاركاً فراغًا لا يُملأ، ووجعًا عميقًا في قلبها. ولم تتوقف مأساة شمس عند هذا الحد، بل استمرت في التفاقم بعدها، لتزداد الصعوبات والآلام التي تواجهها يومًيا.

وفي اليوم التالي، بدأت رحلة النزوح الأولى لشمس وعائلتها بعد اشتداد القصف، فاستقرت مع والدتها في بيت خالتها بمنطقة الصفطاوي شمال مدينة غزة. بقيتا هناك حتى تعرضت المنطقة للتهديد، ما اضطرهما إلى النزوح مرة أخرى إلى منزل مستأجر في منطقة تل الهوا جنوب غرب مدينة غزة بتاريخ الثامن من نوفمبر 2023.

بعد أسبوعين من استئجار المنزل، طلب زوج شمس منها الخروج لشراء بعض الحاجيات الأساسية للمنزل والطعام، على أن تترك طفلها الصغير لدى جارتها للعناية به حتى عودتهم. ورغم شعورها بالاستغراب في تلك اللحظة من هذا الطلب، وافقت شمس على الخروج معه لجلب الطعام.

تروي شمس: "أثناء سيرنا في الطريق، كان زوجي يتحدث معي بكلمات طيبة، يصفني بالمرأة الصالحة والجيدة، وطلب مني أن أسامحه على أي خطأ بدر منه بحقي. سيطر عليّ شعور من الخوف والاستغراب من حديثه، لكنني لم أعطه اهتمامًا كبيرًا. واصلنا المسير حتى وصلنا شارع الوحدة وسط مدينة غزة، حيث كانت هناك دبابة تابعة لجيش الاحتلال الإسرائيلي. شعرت بالخوف وقلت له: "دعنا نسرع ونأخذ طريقًا مختصرًا". وما أن أنهيت جملتي حتى أصيب على الفور بقذيفة من ظهره، فطار أمامي وسقط، وتحول جسده إلى فتات أمام عينيّ".

تضيف شمس: "لم أدِر في تلك اللحظة ماذا أفعل، فصرخت وسط الشارع: "زوجي... زوجي!"، ولم أجد من يساعدني على حمله. ومن شدة الخوف والهلع عليه، ركضت إلى مجمع الشفاء الطبي القريب لأستنجد بهم كي يرسلوا الإسعاف لنقله وإكرام دفنه. توسلت للجميع، لكن لم يجرؤ أحد على المخاطرة بحياته، فعدت إلى منزلي بقلق شديد على طفلي، متأخرة عنه".

تستطرد شمس بأسى: "ركضت إلى طفلي واحتضنته، وطوال الليل لم يغلق جفني لحظة، أفكر: هل أكلت الكلاب جثمان زوجي؟ هل دهسته دبابات جيش الاحتلال الصهيوني ولم يبق له أثر؟ كيف يعقل أنني لا أستطيع رؤيته أو توديعه وإكرام دفنه؟ غرقت في بحر من الأفكار المروعة التي لم تفارقني لحظة".

"عاشت شمس ليلة مرعبة وطويلة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فلم تستطع الكلمات وصف شعورها آنذاك. انتظرت على أحر من الجمر حتى حلول الصباح لتتفقد جثمان زوجها، واطمأنت حين وجدت شبآنا قد قاموا بسحبه وإرساله إلى مجمع الشفاء الطبي. حينها ودعته هي وطفلها، وفي قلبها ألم بالغ وغصة لا يمكن التعبير عنها. تتابع شمس: "حاولت التعبير عن ألمي بشتى الطرق، لكن لم أستطع. لم يكن هناك أحد بجانبي، لا عائلتي ولا عائلة زوجي، فقط أنا وابني ننام مع موظفة في المستشفى".

بعد استشهاد زوجها، فقدت شمس معيلها، وبات طفلها بحاجة ماسة للحليب والحفاضات، فيما لم يجد أحد القدرة على مساعدتها بسبب تدهور الوضع على الجميع. لذا قررت فتح مشروع صغير لبيع المعجنات لتأمين مصروفها ومصروف طفلها، واستطاعت من خلاله تلبية احتياجاتهما قدر المستطاع.

بعد ذلك، أصبحت الحياة صعبة للغاية على شمس، إذ تحوّل حي تل الهوا إلى منطقة خطرة، ما اضطرها للنزوح إلى حي الدرج وسط مدينة غزة داخل قصر الباشا. وبعد فترة، اضطّرت للنزوح مجددًا إلى مجمع الشفاء الطبي غرب غزة، الذي يعتبر مستشفى محميًا قانونًيا ودولًيا. في مارس 2024، تم اقتحام المستشفى، الذي اعتبرته شمس ملجًأ أخيًرا وأمًلا في الأمان، فحاصرتهم القوات الإسرائيلية داخله جواً وبراً وبحراً. أصبح أي تحرك داخله خطًرا شديًدا، إذ كان كل من يتحرك يستهدفه القناص بلا رحمة. وفي تلك الفترة، أصيب أخوها إصابة خطيرة أثناء محاولته جلب ماء الشرب، لكنه استعاد صحته لاحقًا.

بعد أسبوعين من الخوف والرعب والجوع، نزحت شمس فور انسحاب الجيش الإسرائيلي من المستشفى إلى مقر برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) بالقرب من مستشفى الحلو الدولي في حي النصر غرب مدينة غزة. عادت بعدها لمشروعها في بيع المعجنات، واستطاعت مرة أخرى توفير قوت يومها. لكن في شهر رمضان المبارك، تعرضت لمحاصرة جديدة، وانتهى مخزون الماء والطعام لدى عائلتها.

تقول شمس: "الوضع أصبح كارثًيا، لم نعد نحتمل الموت جوعًا، فالموت أهون على نفسي. خرجنا إلى الشارع ونحن نحمل رايات بيضاء، ننطق الشهادة في كل ثانية، متوقعين أن ننالها في أي لحظة، لكن نجونا بأعجوبة بالغة. حينها نصحتني أمي أن أنزح عند والدة زوجي، لأنه لم يعد هناك أي مكان يمكن اللجوء إليه مع طفلي".

ذهبت شمس إلى بيت والدة زوجها، الكائن في ساحة الشوا بحي التفاح شرق مدينة غزة، حيث استقبلتها والدة زوجها بكل صدر رحب وحضن دافئ. والدة زوجها منفصلة وتعيش مع والدتها وأختها، فواصلت شمس معهما العمل في مشروع المعجنات معًا.

أظلمت الحياة أمام شمس عندما تلقت في السادس عشر من أغسطس 2024 نبأ استشهاد والدها، وكان الأمر صعًبا للغاية بالنسبة لها. تقول شمس: "كان أبي وطني، وحين رحل شعرت أنني انتزعت من جذوري، وأن الأرض لم تعد كما كانت. كل شيء تغير، حتى الهواء أصبح أثقل، والفرح صار ناقصًا. توقفت عن عملي في بيع المعجنات لمدة أسبوع، لكنني اضطررت للعودة من أجل طفلي".

زادت الظلمة في حياة شمس، ولم يكن استشهاد والدها آخر همومها، ففي الحادي والثلاثين من أغسطس 2024، تمام الساعة 11 مساءً، استهدفت طائرات الاحتلال الإسرائيلي البيت الذي تقطنه، فاستشهدت حماتها ووالدتها وأختها على الفور أمام أعينها.

تقول شمس: "كنا نجلس سوياً جنًبا إلى جنب، نتحدث ونتسامر حول مشروع المعجنات وموعد انتهاء الحرب، لكن صاروخ الاحتلال الإسرائيلي سرقهم مني، فقطع بداخلي كل أمل وحب للحياة والاستقرار. نجونا أنا وابني بأعجوبة كبيرة، لكن أصبت في قدميّ، ما اضطر الأطباء إلى بترهما. كنت بحاجة ماسة لوحدات دم، وأخوض عملية تلو الأخرى، بينما طفلي صغير جدًا ويحتاج لرعاية كبيرة ورضاعة، وأذكر آخر مرة قمت فيها بإرضاعه وأنا أرقد في العناية المشددة".

وتضيف شمس: "أصعب أيام حياتي أعيشها وأنا في عمر الصبا. العمر الذي كان من المفترض أن أعيش فيه أجمل أيامه، قضيته في الفقد والمرض والعجز".

تعيش شمس اليوم في منزل أخيها في حي الصبرة جنوب مدينة غزة، تواجه مرارة الفقد بكل أشكاله، وتستذكر ذكريات أخيها وزوجها وحماتها في أيام مشؤومة من حياتها. تنهار أحيانا من البكاء ولا تستطيع التعبير أو الحديث، وتشعر أن هذه الحياة سلبت منها كل شيء جميل.

وتكمل بحزن وأسى: "ها أنا عاجزة أمام طفلي، لا أستطيع تلبية أبسط متطلباته اليومية، وأشعر بعجز كبير لا أستطيع مواجهته. أعيش في خيمة، بلا معيل أو مساند، وكأنني بلا روح، والحياة توقفت تمامًا. أتمنى أن أسافر لتركيب أطراف صناعية، لأتمكن من خلالها فقط من إعالة طفلي وتلبية كافة احتياجاته".